جامعة القرويين

وأطوارها الزاهرة في التاريخ

ليس من ينكر ان العلم أساس كل حضارة ، وغير خاف أن المدنية الاسلامية التي يرجع اليها أعظم الفضل كانت قائمة اسسها على العلم وحده ، وقد حدثنا التاريخ عما كان للاولين من الشغف بالعلم والعناية بنشره في ممالك الاسلام. فبغداد وسمرقند ودمشق والقيروان والقاهرة وفارس وغرناطة وقرطبة وفاس كانت جميعها تحتوي على أهم المعاهد العلمية ، ومنها المدرسة النظامية ودور الحكمة والمدرسة المستنصرية في بغداد ، ومدرسة العادلية وغيرها في دمشق ، والصلاحية في القدس ، والجامع لاحمد بن طولون ومسجد عمرو والازهر ودار العلم للفاطميين في مصر ، وبقرطبة حاضرة الاندلس سبع وعشرون مدرسة ، كما كان بغرناطة كثير من الكليات والمدارس العلمية ، وفي أول الفتح كثرت المدارس العامرة بالمترجمين الباحثين في انطاكية والرها ونصيبين وحران وجامع القيروان ، وبعد انقراضه تكونت كلية الزيتونة بتونس والقرويين بفاس وغيرها من مختلف المدارس العلمية الكثيرة التي كانت بالمغرب الاقصى وأدت واجبها نحو العلم وتنوير العقول والمدارك وحمل لواء المدنية الاسلامية الغابرة .

أجل ! لقد شاطر المغرب في تكوين الحضارة وضرب فيها بسهم وافر فكان له في توجيه المدنية وتقدمها الاثر الفعال ، فقد كان عصر الادارسة زاهراً بث الدين والعلم في الاوساط البربرية المخضرمة ، اذ بدأت تتكون النهضة العلمية الاولى منذ امارة المولى ادريس الثاني حيث قصده من الاقطار الاسلامية النائية كثير من العلماء والادباء والفضلاء فكانت عمارة فاس لما أنشئت سنة ١٩٢ هـ. مقصورة على الوفود الاجانب مثل الوفد الذي أتى من قرطبة سنة ١٩١ هـ. بعد تنكيل الامير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الفاتح وحصاره لاهلها ، ويقدر بثمانية آلاف عائلة معظمها من الفقهاء والعلماء وهاجر ايضاً من القيروان والعراق كثيرون فاصبحت فاس عبارة عن عدوتين تنسب الاولى للاندلس والثانية للقيروان بحسب أكثرية من يسكنهما . ولا ريب أنه لما أسست كلية القرويين ام البنين فاطمة الفهرية القيروانية سنة ٢٤٥ هـ. (٨٥٩ م.) في عصر الامير يحيى الادريسي تكون فيها ميدان واسع النطاق للتقدم بالنهضة العلمية وتنوير عقول الشعب ، ولبثت تتعاقب الحركة في تطور وازدهار بتوالي هجرة الاساتذة المتشبعين بالثقافة الاسلامية المتنوعة من كثير الاصقاع وباقبال الطلبة على الارتشاف من هذه الينابيع العذبة ، ومما قوى روح النهوض وكان له أثر عظيم في جامعتنا تلك الهجرة الاخيرة للقيروانيين حيث ثار الاعراب على الصنهاجيين فتحول علمها الى فاس بمقتضى ما رحل اليها من العلماء والادباء والحكماء من مختلف الطبقات فخربت مدينة القيروان منذ ذلك العهد بعد ان كانت المركز العلمي الوحيد بافريقيا الشمالية ولم يبق لها أثر الا في بطون كتب التاريخ والتراجم . كما أن من أعظم الوفود الذين أتوا من الاندلس وفد فيه كثير من النبغاء والادباء والشعراء في القرن الرابع للهجرة لما اختلف بنو امية بعد موت محمد بن أبي عامر المنصور وابنه المظفر .

إن كلية القرويين أقدم جامعة كانت تزخر بالعلوم والمعارف لما توفر فيها من اقطاب العلماء المتباينى الميول والاتجاهات والاذواق والمذاهب ، ومنار وهاج يضيء باشعته افريقية الشمالية بعد خراب القيروان واضطراب قرطبة .

فقد اتفق المؤرخون على أن فاس منذ أسسها الامام ادريس الثاني قبل بناء القرويين بنصف قرن وهي دار علم ، ولم يكن هناك مصدر للعلم أوسع وأغزر مادة من القرويين يصلح لهذه المهمة ، أضف الى ذلك أن التاريخ لم ينص في عصر من العصور على معهد آخر كان ميدان حركة علمية رئيسية منظمة بفاس كالقرويين منذ وجدت الى الآن .

على أن اهتمام الدول الاولى التي نشرت نفوذها على المغرب في القرن الرابع الهجري بهذا الجامع دون غيره من المساجد لم يكن عبثاً فقد أدخل عليه تحسينات فنية أحمد الزناتي بامر عبد الرحمن الناصر أمير الاندلس سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦م) فأبدل المنارة بتشييد اخرى أسمى وأفضل بهجة وأدق هندسة تلك التي نشاهدها حتى الآن ، واعتنى به أيضاً فزاد فيه زيادات المظفر بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٨ هـ. كما اعتنى به أبوه من قبل ، وما ذلك الا للمهمة العظيمة التي يؤديها للامم الاسلامية . فكل هذه البراهين ربما تكون كافية لتأييد نظريتنا فتطفئ غلة الباحث المتجرد عن جميع المؤثرات التي تضله عن محجة الصواب ، ولعل من يرى أن القرويين ما احدثت الا مسجداً للصلاة ثم تحولت بعد عصور الى جامعة يجهل أن من تعاليم الاسلام نشر العلم ومحاربة الجهل وتوسيع دائرة المعرفة الانسانية بكل الوسائل ويشهد لذلك تاريخنا الحافل ، فليس لنا عصر صراع بين الدين والعلم كما للكنائس المسيحية التي حاربت العلم محاربة فعالة امتدت الى القرن السابع عشر للميلاد فكانت من أسباب تاخر اروبا قروناً ، وغني عن البيان أن الاسلام في كل الظروف والاحوال كان بجانب العلم يؤيده وينصره ومساجده ترحب بكل من يبث العلم أو يطلبه .

والواقع أن القرويين كانت مزدهرة في كل عصور المدنية الاسلامية وبالاخص في قرون توالي الدول العظمى فقد كونت فيها كل دولة روح نشاط تناسب نزعاتها التجديدية ومبادئها السياسية فتتصل حلقات تقدمها من حين الى آخر بتجدد روح التقدم العلمي والنهوض السياسي والحق أنها وصلت الى حد كبير من العمارة والنضوج في عهد المرابطين فبذلوا كل ما في وسعهم لاصلاحها والقيام بما يحتاج اليه الطلبة من مرافق الحياة من ذلك مدرسة الصابرين التي بناها الفاتح الاعظم يوسف بن تاشفين فصارت تسمى في القرون الاخيرة بمدرسة أبي مدين ، وضريح ابن الغازي كان مدرسة في هذا العصر أو قبله ، وعلى أي حال فكلتا المدرستين ليس لهما أثر الآن ، وفي سنة ٥٣٣ هـ (٣٨ - ١١٣٩ م) زاد علي بن يوسف بن تاشفين في رحاب القرويين ونقش المحراب وجدار القبلة بافخر النقوش الفنية والتزويق بالذهب الخالص واللازورد واصناف الالوان المتناسبة وكان لذلك منظر فني رائع جذاب يماثل المساجد الاندلسية العظيمة الى غير ذلك مما يطول بنا استقصاؤه وحصره ، وحين توجه الموحدون الى فاس بطرق التجديد والاصلاح المبنية على البساطة والتقشف التي كانت مخالفة لمبادئ دولة المرابطين ازيلت النقوش الذهبية وكل المناظر الفنية مخافة غضبهم وذلك سنة ٥٤٠ هـ في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد .

بيد أن للموحدين ايادي بيضاء في اصلاح الجامعة وكثيراً من الاعمال العظيمة كالترميم الذي قام به أبو حفص ابن يوسف بن عبد المؤمن سنة ٦٠٠ هـ. لما احترق قسم كبير من فاس فأصاب جانباً من القرويين . واذا ما تصفحنا عصر الدولة المرينية التي جددت حيوية النهوض بعد الموحدين وما تركت من المآثر الجليلة وجدناها تنبئ عن حضارة متفوقة في كل نواحي الحياة ، فقد أصلح القرويين يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٨٢ هـ. (٨٤-١٢٨٣م.) وبنى مدرسة الصفارين

سنة ٦٧٩ هـ.(١٢٧٠ م.) وأوقف عليها ثلاثة عشر حملا من الكتب النفيسة القيمة من مختلف العلوم من تراث الاندلس التي بعث بها «سانجة» الطاغية ملك نصارى اشبيلية سنة ٦٨٤ بعد ما عقد الصلح بينهما ، وليست هذه أول مدرسة اسست بفاس كما يزعم بعض الكتاب الافرنسيين فقد سبقهم بذلك دولة المرابطين كما مر واقتدى بيعقوب ابنه أبو سعيد من بعده فاقام مدرسة العطارين سنة ٧٢٠ هـ (٢٣-١٣٢٢ م) ومدرستا الاندلس والمصباحية أسسهما أبو الحسن المريني وبنى خزانة القرويين أبو عنان وأوسع لطلبة العلم مجال البحث فملأها بالكتب النفيسة الدينية والفلسفية والطبية وغيرها وعين لها قيما يرعى نظامها وذلك سنة ٧٥٠ هـ. (١٣٤٩م.) فكانت في غاية ما يكون من النظام والتنسيق فقد قدرت النتفة من الكتب التي بقيت فيها الى هذا العصر بـ١٦٠٠ من المخطوطات من بينها الموطا من عصر المهدي بن تومرت وتاريخ ابن خلدون بخط المؤلف و ٤٠٠ من المطبوعات وأغلب الكتب نقلها المولى عبد الحفيظ الى قصره بفاس ، ومن أهم مآثر ابي عنان مدرسته العظيمة التي تشهد باعتنائه الفائق بالثقافة والعلم .

وبجمل القول فان هذه نتف قليلة من بقية آثارهم الكثيرة التي شيدوها في معظم بلاد المغرب ، وكان قصدهم الوحيد نشر العلم وتشجيع الطلبة وتنوير الافكار فزينوا القرويين بافخر التحف الرفيعة والثريات التي جلبوها من الاندلس (١٣٣٠ م.) وقد امتد الاعتناء بها الى دولة السعديين فارسل المنصور الذهبي الخصة العظيمة ومعها كرسي من المرمر وضعت عليه تلك التي تحت المنارة (٩٩٦هـ) وفي العصور الاخيرة قام ملوك الدولة العلوية بواجبهم نحو القرويين فثبتوا أركانها العلمية ولقحوا عناصر نهوضها فقد كان يحضر الدروس ويتعهد النظام الجامعي من حين الى آخر السلطان مولاي رشيد الذي زاد في حي الكلية مدرسة الشراطين ١٠٨١ هـ. (١٦٦٤ م.) التي كانت ضرورية لكثرة الطلبة الواردين من جميع الانحاء وسن لهم النزهة السنوية التي تكون منها مهرجان أدبي عظيم تنتج فيه القرائح انتاجاً رائعاً في مختلف ضروب الادب ، وفي القرن الثاني عشر الهجري بنى السلطان مولاي محمد بن عبد الله مدرسة الجيسة كما أن المولى سليمان كان من دأبه زيارة القرويين وامتحان التلاميذ بنفسه .

وصفوة القول ان جامعتنا ظلت من أقدم العهود مركزاً رئيسياً للثقافة في افريقيا والغرب يهتدي بنور معارفها كل متعطش للمعارف ، ومحج الطلبة من الاندلس ومصر وطرابلس وتونس والجزائر وانكلترا وفرنسا وايطاليا وغيرهم من الاصقاع النائية ، متفرغين للدراسة يقطنون المدارس ويطعمون ويكسون سبع سنين من الاوقاف الخاصة بهم الى أن انفقها في الحروب آخر ملوك المرينيين ولم يبق منها الا النزر اليسير يصرف على الكلية الى الآن . وقدر مدخول احباس القرويين منذ بضع سنين بـ ٦٨٠،٠٠٠ فرنكا تتفق في اجور المدرسين مع بقية المصالح ، على أن الفنون التي بقيت تدرس الى أواخر القرن التاسع عشر منها الفقه ، والتفسير ، والاصول ، والبيان والمعاني ، والبديع ، والنحو ، والمنطق ، والعروض ، واللغة ، والتصريف ، والتوحيد ، والطب ، والتصوف ، والفلسفة ، والادب ، والجغرافية ، والتاريخ ، والجبر ، والتنجيم ، والهندسة بمؤلفات أعلام الملة وفطاحل علماء الاسلام نرجئ تفصيلها الى فرصة اخرى .

واستعراضنا الوجيز لاطوار القرويين في التاريخ يصور لنا بجلاء عصور النور التي وصل فيها المغرب الى أوج الحضارة والتمدن ، فانجبت لنا الكلية رجالا عبقريين في كل نواحي

المعرفة فتركوا تراثا قيما منه المعلوم، وكثيره في قسم المخطوطات في بعض خزائن المغرب واوربا مجهول لدى الجيل الحاضر ومنه ما اندثر بسبب الحروب والكوارث، وفي تراجم هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من هذه الجامعة كثير من المجلدات الضخمة، فهي بحق أقدم كلية في العالم وعنصر قوي للحركة الفكرية، وركن من أركان المدنية الاسلامية الذي لم ينهد الا بعد انحلال أوصال الحضارة، ولسوف تسترجع مجدها الغابر ان ثابر الشعب المغربي على نشر العلم والثقافة، فتقوم نهضتنا وترتكز على اصول طبيعية يشاد عليها صرح المدنية والحضارة الحق.

أحمد بن احسين النجار

مصادر المقال

القرطاس ـ جذوة الاقتباس ـ زهرة الآس (طبعة الفريد بيل) ـ الاستقصا جزء ١ ـ تاريخ العرب في اصبانيا ـ العبر جزء ٤ ـ سلوة الانفاس ـ المعجب (الطبعة المصرية) ـ فاس وكليته Fès et son Université تاليف ج. دلفان ـ الذخيرة السنية (طبعة كربونيل) ـ مغرب الغد Maroc de demain تاليف پول مارتي ـ نزهة الحادي ـ اتحاف أعلام الناس.

في هذه الحقة
خير دواء للزكام والنزلة، فاطلبوا دائماً
« أقراص فالدة » الحقيقية

غزل العقاد

(تابع للصفحة ٧)

أما طريقة العقاد فغير طريقة المبالغة العقيمة التي يقتصر عليها القاصرون، فهو اذا أراد تنبيه السامع أو القارئ عمد الى المعاني وجسمها تجسيما يبرزها صورا محسوسة تتراءى لعين الخيال تفاجئه بصدمتها وتستحوذ عليه فلا ملجأ له منها حتى ترتكز فيه وتؤدي للفكر المعاني التي افرغت فيها، وهذا هو سر الفنّ وروح الشعر، ومهما كانت هذه الصور الخيالية قريبة المأخذ معهودة الوقوع كانت أقرب الى الصدق وأشد تاثيراً في النفس، مثال ذلك قوله من « ليلة نابغية » وقد أراد تمثيل العذاب الذى يقاسيه في الليل الرهيب عند جفاء الحبيب وقد اخفق في السعي وراء التسلي والعزاء اذ العلل والاسباب التي يلتمسها ليسري بها عن قلبه تزيد ما به وكلما سد باباً من أبواب الالم المحض انفتح باب آخر قال:

فيالك من قلب اذا ما تعللت ... قلوب الورى لم يغن عنه التعلل
تعلق الا بالمحال رجاؤه ... وأقسم لا يلهو ولا يتأول
ضمنت كدفاع الضرام لواعجا ... أأنت لنيران اللواعج هيكل
فيامن يراني والفؤاد كانه ... ذبيح تشظى في تراقيه منصل
ويامن يراني والظلام كانه ... اذا الليل اغضى قاتل يتزمل
ويامن يراني والنجوم كانها ... نواظر من خوف الغياهب تقفل
كان الفضاء لم ير الشمس مرة ... ولم يسر فيه بدره المتهلل
أبيت ولي ليلان ليل صباحه ... يرجى وليل مدبر الصبح مقبل
اضمد جرحي باليدين وفيهما ... جراح يغشيها النجيع المسلسل
واحمل نفسي وهي ولهى طليحة ... اذا التام منها مقتل سال مقتل
اذا أدبر الليل استرحت وانما ... يوكل بي الليل الذي هو أطول

فليقرأ القارئ هذا البيت:

فيامن يراني والفؤاد كانه ... ذبيح تشظى في تراقيه منصل

ثم فليتخيل بعد ـ وهو مجبور على ذلك ـ صورة الذبيح الذي بلغت القسوة بذابحه الى أن تكسر المنصل في تراقيه ولينزع الفكر منها ما شاء من معاني العنف والالم والارتعاش.

ومن هذا القبيل قوله: